﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور:44 - 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الدَّليلُ الدامغ على قدرته ﷻ في خلقه

بعد أن ساق سبحانه في الآية السابقة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور: 43] دليلًا علويًّا على وحدانيَّتِه وقدرته؛ أتبعه دليلًا زمنيًّا يحسُّه الناس، ويشاهدونه في حياتهم، وهو تقليب الله اللَّيل والنَّهار، أي: إنَّه يعاقب بينهما، ثمّ ساق سبحانه دليلًا ثالثًا من واقع خَلْقِ كل دابَّة، وبديع صنعه فيما خَلَقَهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقَلِّبُ﴾: (قلب) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما يَدُلُّ على خالِصِ شَيْءٍ وشَريفِهِ، والآخَرُ يَدلُّ على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فالأَوَّلُ القَلْبُ: قَلْبُ الإِنْسانِ وغَيْرِهِ، سُمِّيَ به؛ لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فيهِ وأَرْفَعُهُ، وخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وأَشْرَفُهُ: قَلْبُهُ[2]، وقَلْبُ الشيء: تصريفُهُ وصرفه عن وجه إلى وجهٍ، كقلب الثَّوب، وقلب الإنسان، أي: صرْفُهُ عن طريقته، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت:21]، والانْقِلابُ: الانصراف، وقَلْبُ الإِنْسان: قيل: سُمّي به؛ لكثرة تَقَلُّبه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به، من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك[3].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(3) الراغب، المفردات: (قلب).

والمعنى هنا: يصرِّف اللهُ اللَّيلَ والنَّهار، بتحويل الظَّلام ضياءً، والضياءِ ظلامًا، والنَّقصِ تارةً، والزيادةِ أخرى، مع المطر تارةً، والصحو أخرى، والتقليبُ: تغييرُ هيئةٍ إلى ضدِّها[1].

2) ﴿لَعِبْرَةً﴾: (عبر) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على النُّفوذِ والمُضيِّ في الشَّيْءِ، وأصلُه مِنْ عَبْري النَّهْرِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عِبْرٌ مُساوٍ لِصاحِبِه، فذاكَ عِبْرٌ لِهَذا، والعِبرةُ: الاعتبار بما مضى[2]، والعِبرةُ الدلالة بالشَّيء على مِثْلِه[3]، والاعْتبارُ والعِبْرَةُ: يختصّان بالحالة التي يتوصَّل بها من معرفة المشاهَدِ إلى ما ليس بمشاهَدٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾[4]، فالعبرة هنا يُراد بها ما يشتمل على الاستدلال على مقصود مطلوبٍ.

3) ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: (بصر)، هذه المادَّة أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: العِلْمُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: هوَ بَصيرٌ به، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ، وأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: رَأَيْتُهُ لَمحًا باصِرًا، أَيْ: ناظِرًا بِتَحْديقٍ شَديدٍ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ؛ إِذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُهُ؛ إِذا رَأَيْتَهُ، وأَمّا الأَصْلُ الآخَرُ؛ فبُصْرُ الشَّيْءِ: غِلَظُهُ، ومِنْهُ البَصْرُ: هوَ أَنْ يُضَمَّ أَديمٌ إِلَى أَديمٍ، يُخاطانِ كَما تُخاطُ حاشيَةُ الثَّوْبِ[5]، والبَصَرُ يقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل:77]، و: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب:10]، وللقوَّة التي فيها، ويقال لقوَّة القلب المدركة: بَصيرَةٌ وبَصَرٌ[6].

والمراد بقوله: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: أصحابُ الأبصار النافذة، والقلوب الناقدة، يَعْبُرون منها إلى معرفة ما لمدبِّر ذلك من القدرة التامَّة والعلم الشامل الدالِّ قطعًا على الوحدانيَّة[7].

4) ﴿دَآبَّةٍ﴾: (دَبَّ) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهوَ حَرَكَةٌ على الأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى على الأَرْضِ فهوَ دابَّةٌ"[8].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 273.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عبر).
(4) الراغب، المفردات: (عبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(6) الراغب، المفردات: (بصر).
(7) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 273.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دب).

والمقصود بـ: ﴿دَآبَّةٍ﴾ في الآية: كلُّ ما يدبُّ على الأرض مِن جنس الحيوان مِن الإنسان وغيرِه، أي: معنى الكلمة العامُّ، بقرينة قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾، وقولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بديعُ صنع الله تعالى يشمل الزمانَ والإنسانَ على السواء

يقلِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنهار بالمعاقبة بينهما، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحرِّ والبرد والظُّلمة والنور، أو بما يعمُّ ذلك، إنَّ في ذلِكَ التقليب لدلالةً قويَّةً على وجود الصانع القديم، وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزُّهه عن الحاجة، واللّه خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماءٍ مخصوص، هو النُّطفة، فمنهم الزَّواحف، ومنهم النَّعمُ والوحش، ومنهم الإنسُ والطير، وهو سبحانه يخلق ما يشاء بمقتضى مشيئتِه؛ لأنَّه تعالى عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، فيفعل ما يشاء[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل صدر الآية عمَّا قبلَهُ:

سبحان مَن لا يُحيط بسَعة قدرته إلّا هو

فُصِلت جملة: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ عمّا سبق؛ لكونها واقعةً موقع الاستئناف البياني من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور:43]؛ إذ إنَّه لمّا ذكر قدرته تلك، وأعقبها بقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:43] الدال على المبالغة في بيان مزيد هذه القدرة؛ أتبع ذلك البيان بأوسع منه، فقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، على تقدير أنَّ قائلًا قال: لم كان هذا؟ وما سرُّ قوَّة هذا السحاب؟ وما الأمر المترتب عليه؟ فورد الجواب: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الآية، ففصلت؛ لشبه كمال الاتِّصال، ويجوز أن يكونَ بين

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 4/ 111.

هذه الآية وما قبلها كمال اتِّصال؛ لأنَّها في المعنى نتيجة لما قبلها مِن استدلالات، فهي تلزم عنها، وهي يلزم منها ذكرُ استدلالات قبلَها، فلهذا غابت الواو.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

قلبُ الشَّيء وتقليبه تصريفه وصرفه عن وجهٍ إلى وجهٍ، وتغييره مِن حال إلى حال، ومنه: قلبُ الثوبِ والإنسان، أي: تصريفه وتحويله عن طريقته، ومجيء التَّعبير به فعلًا مضارعًا: ﴿يُقَلِّبُ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّده واستمراره بلا انقطاع، مع استحضار تلك الصّورة في الأذهان، فالتَّجدُّدُ هو المصوِّر للتَّقليب، والمتناغي معه.

قـدرتـه تـعـالى دائمة وأبديَّةٌ

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى اسم الجلالةِ المظهر:

أقيمَ الظّاهرُ: ﴿ٱللَّهُ﴾ مقامَ الضَّميرِ؛ تعظيمًا لشأنه ولإدخال الروع في النُّفوس؛ ليقوّي الدّاعي الذي سيق الكلام له، وهو كونه ﷻ الذي يقدر على إدخال اللَّيل في النَّهار والعكس، وتصرُّف أحوالهما زيادةً أو نقصًا أو غير ذلك، فهو إدخال حقيقيٌّ إذًا، وإظهارُ اسم الجلالة فيه إشعار بقوَّة ظهور دلائل الألوهيَّة في هذا التقليب؛ لِمَن أراد الاعتبار والاتِّعاظ.

في تقليب اللَّيلِ والـنـهـار يظهر جـــلال الـلـه وجماله

سرُّ تخصيص ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالذِّكر:

التَّعبيرُ باللَّيل والنَّهار هنا تعبيرٌ مجازيٌّ لغويٌّ مرسلٌ علاقتُه الحالية؛ لكونهما زمانين لحالة التقليب المذكورة، "فالمُقَلِّبُ هوَ الجَوُّ بِما يَخْتَلِفُ عليه مِنَ الأَعْراضِ، ولَكِنْ لَمّا كانَتْ حالَةُ ظُلْمَةِ الجَوِّ تُسَمَّى لَيْلًا، وحالَةُ نورِهِ تُسَمَّى نَهارًا؛ عَبَّرَ عَنِ الجَوِّ في حالَتَيْهِ بهما، وعُدِّيَ التَّقْليبُ إلَيْهِما بِهَذا الاعْتِبارِ"[1].

كـلُّ شيءٍ يـدلُّ بظاهره وباطنه عـلى الـلـه ذاتًـا وصفاتٍ

وورود ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ معرَّفين بـ(أل)؛ لشهرتهما، ولكونهما معلومين لكلِّ سامع، ولقصر التقليب عليهما دون سواهما قصرًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 264.

حقيقيًّا؛ ولكونهما مخصوصَين بهذا الفعل، مع ما يفيده التَّقليب من المبالغة في أمر التغليب والتقليب.

سرُّ الفصل:

هداية الإنسان إلى الطريق المستقيم غاية عليَّة

فُصِلت جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ عن جملة: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ لكونها تعليلًا لها وتفسيرًا على جهة الاستئناف البياني؛ لبيان السِّرِّ في تقليب اللَّيل والنَّهار، وهذه الجملة هي المقصود مِن السياق، ولكن بُنِي نظمُ الكلام على تقديم الجملة الفعلية: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ لما تقتضيه مِن إفادة التَّجدد، بخلاف أن يقال: إنَّ في تقليب اللَّيل والنَّهار لعبرةً[1]، وفي استقلال معنى هذه الجملة المستأنفة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾: تفخيمٌ للتقليب مِن جهة، وللعبرة مِن جهة أخرى.

بلاغةُ التَّأكيد:

الغافلُ الجاحد إنَّما يُعمي قلبَهُ الذي في صدره

أكَّد القرآنُ مضمون جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة واللام؛ اهتمامًا بالخبر واحتفالًا به؛ لأنَّه يوجِّه المتلقّين إلى الانتفاع بالدلائل السابقة وغيرها، أو لتنزيل المشركين - ومَن لفَّ لفَّهم في هجرهم الاتِّعاظ وتركهم أخذ العبرة - منزلةَ المنكر؛ لأن يكون في هذه الأدلَّة - ومنها التقليب المذكور - عظةٌ وعبرة[2]، ومن الممكن جدًّا هنا أن يكون التوكيد ناظرًا إلى ذات المعنى، باللَّفت إلى عظيم أهمّيته في باب الاستدلال والاعتبار.

معنى ﴿فِي﴾ وغرض ذكرها:

أدلَّةُ القرآنِ هي الأعلى والأسخى والأمكن والأقوى في بابها

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ظرفيَّة، والظرفيَّة هنا معنويَّة واردة لمزيد التوكيد في الجملة الواردة بعد بيان قدرتِهِ ﷻ على تقليب الليل والنهار، وإدخال أحدهما في الآخر؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 264.

زيادةً أو نقصًا، وهي دالَّة على تمكُّن العِبرة في هذا الشَّأن تمكُّنَ الظَّرف من المظروف، أو هي راجعةٌ إلى جميع الآيات السابقة من إنشاء الله السحاب، وإنزاله منه الودقَ، ومن السَّماء البردَ، وفي تقليبه اللَّيل والنَّهار[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ للبعيد:

كـلُّ دليـل على الألوهيَّةِ هو عليٌّ المنزلةِ في بابه

وردت الإشارة - في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ - إلى ما يحدث لكلٍّ من الليل والنهار من التغيير والتصريف باسم الإشارة للبعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لتمييز ذلك أكملَ تمييزٍ بإحضاره في ذهن السّامع؛ ليكونَ أكثر تصوُّرًا له بألّا يغيبَ عنه شيء من أوصافه، أو للإشارة لكلِّ ما سبق من إزجاء الله السَّحاب والتأليف بينه، وإنزاله المطر والبَرَدَ، وتقليبه اللَّيل والنهار، لتعظيم هذه الأمور؛ لكونه لا يقادر قدرها، ولا يدرك كنهها؛ إذ هي من صنع الذي يقول للشيء كن فيكون، وللإيذان بعلوِّ رتبتها وعظيم نفعها، والنكات البلاغية هنا لا تتزاحم[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾:

أحسـن تعـالى بخَلْق الدليل، وبالتمكين منه

عبَّر القرآن بـ: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ لأنَّ المتلقي يتمكَّن من الأدلَّة المذكورة سابقًا كتقليب الليل والنهار، ومِن شأنه بسهولةٍ وقوَّة أن يستدلَّ به على المطلوب، مِن المستدَلِّ عليه، وهو الله تعالى، والعِبرةُ هي الألصق بكون التقليب مشاهدًا أثرُه ونتيجتُه؛ فيكون دليلًا قويًّا على ثبوت ما ليس بمُشاهَدٍ ذاته، وهو الله ﷻ.

سرُّ تخصيصِ ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بالذِّكر:

﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ هنا جمع بصر بمعنى البصيرة، وقيل: هو بمعنى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 203.

(2) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 185، والآلوسي، روح المعاني: 18/ 192.

البصر الظّاهر، كما هو المتبادر منه، والتَّعبير بذلك دون البصائر؛ للإيذان بوضوح الدِّلالة[1]، وخصَّهم بالذِّكر؛ لأنَّهم المنتفعون، حيث يتأمَّلون، فيجدون الماء والبَرَدُ، والظُّلمة والنور تخرج من شيء واحدٍ، وعلى حمل ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ على أنَّها جمعُ بصيرة، يكون بينها وبين: ﴿بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ [النور: 43] في الآية السابقة جناس تامٌّ؛ لاتِّفاقهما في عدد الحروف ونوعها وترتيبها وهيئتها، واختلافهما في المعنى.

آياتُ الله تعالى واضحةٌ لكلِّ ذي لبٍّ وبصر

دلالةُ العطف:

جملة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، واردة على سبيل الاعتبار والعظة، وكونها دليلًا من الأدلَّة التي ساقها الله تعالى؛ لبيان مزيد قدرته وبالغ وحدانيَّته، فلمّا ذكر أوَّلًا الدليل على وحدانيَّته وقدرته في إزجاء السحاب الذي ينتج عنه الخير الوفير، وما يتبعه من البرق وغيره، وساق الدليل الثاني على قدرته وحكمته في تقليب زمن الليل والنهار، وكونهما عِبرةً للمتبصِّرين؛ عاد هنا بذكر الدليل على قدرته في خلقه وبديع صنعه ﷻ في هذا الخلق، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾، فاكتملت صورةٌ بتلك الأدلَّة جميعها تشمل السماءَ والأرض وما بينهما وما فيهما؛ لبيان هذه القدرة وعظمة الوحدانيَّة لجلاله وكبريائه[2]، فيُلاحَظ التدرُّج في سوق هذه الأدلَّة بما يُفْهِمُ أنَّ الله سخَّر ما في السماوات وما في الأرض لهذا الإنسان.

مِـــن كـمـال إحسانِهِ تنويعُ الأدلة على كمال قدرته

سرُّ التَّعبيرِ باسم الجلالة المظهرِ:

ورد لفظُ الجلالة المعظَّم (الله) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ مظهرًا دون إضماره - مع سبق ذكره في الدليل السابق - لإدخال الروع في النُّفوس؛ ليقوّي الدّاعي الذي سيق له الكلامُ من أجله،

سبحانَ الحاضرِ عِـزُّ ألوهيَّتِه في كلِّ شيءٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 384.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 294.

وهو بيان هذا الخلقِ العجيب على جميع هيئاته، والذي لا يقدر على إيجاده وتكوينه إلّا اللّه عزَّ سلطانه، ولكون المقام مقتضيًا التعظيم، وذِكْرُ اسم الجلالة مظهرًا هنا وفي الآية السابقة؛ للتَّنبيه على عظيم الاستدلال بكلِّ دليل على حدة، وعظيم الامتنان بما ذُكِر في كلٍّ منهما على حدة أيضًا، فهو يوحي باستقلال مضمون آيتِهِ في باب الاستدلال أصالة، والامتنان تبَعًا.

بلاغةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسندِ:

الخلقُ من عظيم الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ اللّه تعالى وألوهيَّته

جاء المسند إليه: ﴿وَٱللَّهُ﴾، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ مقدَّمًا؛ لأصالته، ولكونه مشوِّقًا إلى الخبر ﴿خَلَقَ﴾، وحينئذٍ قُدِّم ليتمكَّن الخبرُ، ويتحقَّق في ذهن السامع، وللدَّلالة على هذا التَّحقق ورد الفعل ماضيًا، وهو بجملته خبرُ هذا المبتدأ المسند إليه هذا الخلق.

وفي تقديمه أيضًا على ما بعده إشارةٌ لطيفة، وهي أنَّ ما بعده مِمَّا مِن شأنه أن يعرِّف باللّه ويوصل إلى اللّه، والقرآن يرمي إلى ذلك؛ ليلفتهم إلى ما بين أيديهم، وما يعيشون فيه ومعه، وقد غفلوا عنه، أي: عن ثمرته استدلالًا وامتنانًا.

وقدَّمه أيضًا: لأنَّ المقصودَ التعريفُ باللّه على العموم، والتَّعريفُ بقدرته على الخصوص، ولهذا قيل في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومِن شأن المُعرَّف أن يُقدَّم.

دلالةُ صيغة الخَلق:

كونه تعالى خالقًا أمر جليٌّ

واستعمل لفظ الماضي ﴿خَلَقَ﴾؛ لتحقُّق هذا الخلق وحصوله حتّى صار أمرًا واقعًا لا يشكُّ فيه أحد منذ القِدَم، ولا ينكره؛ لكونه مشاهدًا لهم جميعًا، مع فائدة أخرى، وهي عدمُ فوات الدلالة على التَّكرير، حيث عُقِّب الكلام بقوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 265.

دلالةُ التَّعبير بلفظ العموم:

الكُلِّيَّةُ إحسانٌ؛ فإنَّها تفصيلٌ في الاستدلالِ والامتنانِ

لفظ ﴿كُلَّ﴾ دالٌّ على العموم، وهو "اسم وُضِع لضم أجزاء الشيء على جهة الإحاطة من حيث كان لفظُهُ مأخوذًا من لفظ الإكليل والكلَّة والكلالة ممّا هو للإحاطة بالشَّيء، وذلك ضربان، **أحدهما**: انضمامٌ لذات الشَّيءِ وأحواله المختصَّة به، وتفيد معنى التمام، و**الثاني**: انضمام الذوات، وهو المفيد للاستغراق، ثمَّ إن دخل على منكَّر أوجب عمومَ أفراد المضاف إليه، أو على معرَّف أوجب عمومَ أجزاء ما دخل عليه، وهو ملازم للأسماء، ولا يدخل على الأفعال"[1]، وهو هنا مضاف إلى نكرة مفردة؛ للدلالة على استغراقه وشموله وعمومه.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي قوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ﴾:

بمجموع القراءتين ظهر نور الاستدلال بقوَّةٍ وشدَّةٍ

قرأ الجمهور: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ بالفعل الماضي ونصب: ﴿كُلَّ﴾، وقَرَأَهُ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ بِصيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ، مع جرِّ لفظ: (كلّ) على الإضافة، أي: من قبيل إضافةِ اسْمِ الفاعِلِ إِلَى مَفْعولِهِ؛ للدَّلالة على ثبوت الخلق ودوامه واستمراره، فهو أمرٌ ثابتٌ لا يتغيَّر من بدْءِ الخليقة إلى نهايتها[2].

وقراءةُ الفعل الماضي تشملُ ما كان، وما هو كائن، وما سيكون؛ فكلُّ دابَّةٍ على وجهِ الخليقةِ منذ أول يوم خُلِقت فيه دابَّةٌ إلى آخرِ يومٍ تُخْلَقُ فيه دابَّةٌ قد خلقَها الله ﷻ وكان الأشكلُ بذلك هو الفعلَ المضارعَ؛ لأنَّه أعمُّ من الماضي؛ لكنَّ في الماضي حسمًا وفصلًا وقطعًا لمسألة الخلق تلك؛ لكمال ظهورها في بصر كلِّ عاقلٍ منصف غير جاحدٍ، وكأنَّ هذه القراءةَ لَمن هو كذلك من أهل الإيمان، ومن غيرهم ممَّن إذا عُرِضَ عليهم الهُدَى؛ اهتدَوا.

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 317.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266، بتصرف.

معنى ﴿مِّن﴾:

(مِن) في قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: أنَّ بداية هذا الخلق كانت من الماء، أي: من نطفة خاصة بكلِّ نوعٍ من أنواع الدوابِّ.

دلالةُ تنكير لفظ ﴿مَّآءٍ﴾ هنا، وتعريفه في سورة الأنبياء:

التَّنكيرُ لمقام بسط استدلال، والتعريف لمقام قبضه

جاء لفظُ ﴿مَّآءٍ﴾ هنا نكرةً؛ لِأَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ نَوْعٍ مِنَ الماءِ يَخْتَصُّ بِتِلْكَ الدّابَّةِ، فالمقصودُ إرادةُ النَّوْعيَّةِ؛ تَنْبيهًا على اخْتِلافِ صِفاتِ الماءِ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الدَّوابِّ؛ إذِ المَقْصودُ تَنْبيهُ النّاسِ إلَى اخْتِلافِ النُّطَفِ لِلزِّيادَةِ في الِاعْتِبارِ، وقولُه: ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ - بالتفصيل بالمضاف إليه - ألصقُ بتنكير قوله: ﴿مَّآءٍ﴾، وبالتعبير بالخَلْق، وتمهيدٌ للتفصيل في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

وَإِنَّما جاءَ مُعَرَّفًا في قَوْلِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30]؛ لِأَنَّ المَقْصودَ هُنا أَنَّ أَجْناسَ الحَيَوانِ كُلَّها كأَنَّها مَخْلوقَةٌ مِنْ جِنْسِ الماءِ، وهوَ جِنْسٌ واحِدٌ اخْتَلَفَتْ أَنْواعُهُ، فتَعْريفُ الجِنْسِ هُناكَ إشارَةٌ إلَى ما يَعْرِفُهُ النّاسُ إجْمالًا، ويَعْهَدونَهُ مِنْ أَنَّ الحَيَوانَ كُلَّهُ مَخْلوقٌ مِنْ نُطَفٍ أُصولِه[1]، وقولُه: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30] بالعموم غير المفصَّل في قوله: ﴿شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30]: ألصقُ بالتعبير بالجعل، وبتعريف الجنس في قوله: ﴿ٱلْمَآءِ﴾ [الأنبياء: 30].

السرُّ في تعميم ذِكرِ الخَلقِ مِنَ الماء:

الأَصْـلُ الأَوَّلُ للخِلْقَةِ هوَ الماءُ

إنَّ اللّه تعالى ذكر خلق الدوابِّ في جميع أجناسها من الماء بلفظ العموم، مع أنَّ هناك الكثيرَ من الحيوانات، أو الملائكة ﷺ أو الجنِّ ليسوا مخلوقين من الماء، ولا صلةَ لهم به البتَّة، "والجَوابُ مِنْ وُجوهٍ: **أَحَدُها** ...، وهوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صِلَةُ: ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، ولَيْسَ هوَ مِنْ

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 12/ 17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

صِلَة: ﴿خَلَقَ﴾، والمَعْنَى أَنَّ كُلَّ دابَّةٍ مُتَوَلِّدَةٍ مِنَ الماءِ؛ فهيَ مَخْلوقَةٌ للّه تَعالَى، **وَثانيها**: أَنَّ أَصْلَ جَميعِ المَخْلوقاتِ الماءُ ...، ولَمّا كانَ المَقْصودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ بَيانَ أَصْلِ الخِلْقَةِ، وكانَ الأَصْلُ الأَوَّلُ هوَ الماء؛ لا جَرَمَ ذَكَرَهُ على هَذا الوجه، **وَثالِثُها**: أَنَّ المُرادَ مِنَ الدّابَّةِ الَّتي تَدِبُّ على وجْهِ الأَرْضِ، ومَسْكَنُهُم هُناكَ، فيَخْرُجُ عَنْهُ المَلائِكَةُ والجِنُّ، ولَمّا كانَ الغالِبُ جِدًّا مِنْ هَذِهِ الحَيَواناتِ كَوْنَهُم مَخْلوقينَ مِنَ الماء؛ إِمّا لِأَنَّها مُتَوَلِّدَةٌ مِنَ النُّطْفَةِ، وإِمّا لِأَنَّها لا تَعيشُ إِلّا بِالماءِ؛ لا جَرَمَ أَطْلَقَ لَفْظَ الكُلِّ؛ تَنْزيلًا لِلغالِبِ مَنْزِلَةَ الكُلِّ"[1].

معنى الفاءِ ودلالة التَّعبير بها:

الفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ تفريعيَّةٌ عاطفةٌ، فقد ورد تفصيل هذه الأصناف وتفريعها على الإجمال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾؛ لبيان أنواع هذه المخلوقات دلالةً على قدرته ﷻ، والفاء العاطفة معناها التعقيبُ، وهو في كلِّ شيء بحسبه، ومن معاني الفاء عطفُ المفصَّل على المجمل، وقد أقامت الفاءُ الكلام على التَّرقّي من القليل إلى الكثير إلى الأكثر، وهلمَّ جرًّا.

تفصيلٌ جَليٌّ يحكي عن قدرة الله العلي

بيانُ المرادِ من لفظَي (مِنْ) و﴿مَّن﴾ في الآية:

(مِن) الأولى في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ للتَّبعيض، والمعنى: بعضهم الذي يمشي إلى آخره، أمّا ﴿مَّن﴾ الثانية؛ فهي الموصولة، وقالوا فيها: أصلها أن تكون لمَن يعقل، وإن استُعمِلت في غيره؛ فعلى المجاز، وإذا أُطلقت على ما لا يعقل؛ فإمّا لأنَّه عومِلَ معاملة مَن يعقل، وإمّا لاختلاطه به؛ فيكون مجيء ﴿مَّن﴾ هنا للتغليب الذي اقتضاه الاختلاطُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، فعُبِّر بها عمَّن يمشي على بطنه، وهم الحيّات،

لا يخلو شيءٌ مِن مُكوِّنات البيان القرآني مِن فائدةٍ وغرضٍ

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 12/ 17.

وعمَّن يمشي على أربع، وهم البهائم؛ لاختلاطهم مع مَن يعقل في صدر الآية؛ لأنَّ عمومَ الآية يشمل العقلاءَ وغيرهم، فغُلِّب على الجميع حكم العاقل"[1].

وجملةُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي﴾ لا محلَّ لها من الإعراب معطوفةٌ على جملة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ﴾ من باب عطف المفصَّلِ على المجمل؛ زيادةً في البيان والإيضاح من قبيل التفصيلِ بعد الإجمال، وجملة ﴿يَمْشِي﴾ الأولى هنا لا محلَّ لها، صلةُ الموصول ﴿مَّن﴾ الأولى وهكذا، وبين: (مِن) و: ﴿مَّن﴾ تشابهٌ لفظيٌّ يُمكِّنُ المعنى، ويؤكِّده.

سرُّ التَّذكير في: ﴿فَمِنْهُم﴾:

جاء الضَّمير في ﴿فَمِنْهُم﴾ هنا مذكَّرًا لتغليب العقلاء، والتَّعبيرُ بـ﴿مَّن﴾ التي للعاقل فيما لا يعقل؛ ليوافقَ التفصيلُ الإجمالَ، والترتيبُ لتقديم ما هو أعرف في القدرة"[2]، فورد الضَّمير هنا عائدًا إلى لفظ ﴿كُلَّ﴾ باعتبار معناه، فغُلِّب فيه العاقلُ على غيره، فمن هذه الدَّواب مَن يمشي على بطنه كالزواحف وغيرها، ومنهم مَن يمشي على رجلين كالإنس والطير، ومنهم مَن يمشي على أربع، مثل الأنعام والوحوش، والتَّغليب هو ترجيح أحد المعلومين على الآخر، وإطلاق لفظهِ عليهما، وقد يُنزلون غير العقلاء منزلتهم؛ إذا وصفوه بما هو مختصٌّ بهم"[3].

قد يدلُّ غيرُ العاقل على المطلوب أكثرَ مِن العاقل مبالغةً

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَمْشِي﴾:

المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة، ويُكنى به عن النَّميمة، قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم:11]، ويُكنّى به عن شربِ المسهل، فقيل: شربت مِشْيًا ومَشْوًا"[4]، والتَّعبير بالفعل

لقراءتَي (خلق كل) أثرٌ في توجيه هذا المضارع

(1) الزركشي، البرهان: 411/ 4 - 413.
(2) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 185.
(3) الطيبي، كتاب التبيان في المعاني والبديع والبيان: 294 - 293.
(4) الراغب، المفردات: (مشى).

المضارع؛ للدَّلالة على التجدُّد والاستمرار والحدوث شيئًا فشيئًا، وهذا ما يصوِّر حقيقةَ المشي، وهذا التَّعبيرُ بالمضارعِ على ظاهره، على قراءة: ﴿خَالِقُ كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، وهو على غير ظاهره، على قراءة: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، فيكون دالًّا على استحضار هذه الصورة الماضية.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾:

في المشي حركةٌ للبحث عن الرزق وتحقيق الغايات

في الآية الكريمة استُعيرَ المشي الذي هو انتقال من مكان إلى مكان للزحف على البطن، كما استعارت العرب المشفر الَّذي هو من خصائص البعير؛ لشفة الإنسان لكبرها، والاستعارة هنا تبعيَّة في الفعل، والقرينة عقلية لاستحالة المشي على البطن حقيقة؛ مبالغةً في سرعة الحركةِ، كما يقع من الماشي الحقيقي، أو سُمّيت هنا مشاكلة؛ لوقوعها في صحبة أختيها، وهما المشي على الرجلين أو الأربع مشاكلة تقديريَّة، ولا تعاند بين القول بالاستعارة والقول بالمشاكلة، وكما هو شائع في لغة القوم، يقولون: مشى فلان في هذا الأمر؛ إذا استمرَّ فيه، وقطع فيه أشواطًا، وسُمِّي زحف الدواب مشيًا؛ إشارةً إلى كمال القدرة، وتحقيقها هدف المشاة، وهو الانتقال والحركة للبحث عن الرزق وتحقيق الغايات[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالة التعبير بها:

تنوُّعُ أساليبِ المشي من تمام قدرته تعالى

﴿عَلَىٰ﴾ في أصل وضعه حرف جرٍّ، يُراد به الاستعلاء حقيقة أو مجازًا، وهنا استُعمِل للزَّحف على البطن حقيقة، ولاستعلاء المشي على البطن من الأرض؛ لكون هذا الزّاحف لا أرجل له يمشي عليها، فمشيهُ على بطنه زحفًا هو وسيلتُهُ وآلته الوحيدة، ومجيئها هنا أبلغُ من أن يقال: يمشي ببطنهِ، وشاع الاستعمال، وكثُر التَّعبير بلفظ ﴿عَلَىٰ﴾ بين القوم جميعًا، يقال: مشى فلانٌ على ركبتيه وعلى بطنه؛ مبالغةً في السُّرعة والحركة وعدم البطء، فـ:

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 71.

﴿عَلَىٰ﴾ تُصوِّر تمكينَ الله ما يمشي على بطنه مِن ذلك الزَّحف الذي عُبِّر عنه بالمشي.

معنى الواو، وبلاغة الترتيب في الآية:

اعتباراتُ ترتيب المعاني تتغاير، وتختلف، ولا تتعاند

الواو في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى﴾ عاطفة، وهي "التي تُشْرك في الإعراب والحكم، وهي لمطلق الجمع على الصحيح، ولا تدل على أنَّ الثاني بعد الأوَّل، بل قد يكون كذلك، وقد يكون قبله، وقد يكون معه"[1]، وهنا عطفت الواو جملة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ على ما قبلها؛ ترقّيًا من الأدنى إلى ما هو أعلى منه شيئًا، ثم إلى ما هو أعلى من الاثنين؛ لكثرته في ذاته، وإن كان الأوَّلُ أدقَّ من أخويه.

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ القرآن قدَّم ما هو أعرقُ في القدرة، وهو الماشي بغير آلة مشْيٍ من أرجل أو قوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع[2]، ولفت الشيخ ابن عاشور في الآية لفتة جميلة؛ إذ قال: "وَرُتِّبَ ذِكْرُ الأَجْناسِ في حالِ المَشْيِ على تَرْتيبِ قوَّةِ دَلالَتِها على عِظَمِ القُدْرَةِ؛ لِأَنَّ الماشيَ بِلا آلَةِ مَشْيٍ مُتَمَكِّنَةٍ أَعْجَبُ مِنَ الماشي على رِجْلَيْنِ ...، ولَيْسَ في الآيَةِ ما يَقْتَضي حَصْرَ المَشْيِ في هَذِهِ الأَحْوالِ الثَّلاثَةِ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الاعْتِبارُ بِالغالِبِ المُشاهَدِ"[3].

سرُّ الفصلِ:

يَتَجَدَّدُ خَلْقُ اللهِ ما يَشاءُ أَنْ يَخْلُقَهُ مِمّا عَلِمنا ومـا لَم نعْلَم

لَمَّا بيَّن تعالى بعضَ أقسام مخلوقاته على جهة التعديد، وعلى جهة التَّرقي؛ كان ذلك من شأنه أن يُحرِّك المتلقّين للسؤال عن وجود خلْقٍ آخرَ عجيبٍ كالمذكور، فكان الجواب: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، ففُصِلت هذه الآية عمّا قبلَها؛ لما بينها وبين ما قبلها مِن شبه كمال الاتِّصال.

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 436.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

بلاغةُ وضع المظهرِ موضعَ المضمر:

في إظهاره تنبيهٌ على كمال نورِ وجوده وألوهيَّته في الدليل

ورد اسمُ الجلالة في قوله: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ﴾ مظهرًا في موضع الإضمارِ؛ للإبلاغ في تعظيم شأنِ الخالق ﷻ لكونه يخلقُ في الكون للناس وغيرهم ما لا يعلمون في الهيئات والطبائع والحركات والقوى[1].

وقد يُراد بإظهارهِ إلقاءُ الرَّوع في النُّفوس؛ لتقوية الدّاعي الَّذي سيق الكلام من أجلهِ، وهو بيانُ كمالِ قدرته ﷻ على خلق جميع أصناف الموجودات ممّا عُلِم وممّا لم يُعْلَم؛ ففيه تفخيمُ شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنَّه من أحكام الألوهيَّة[2].

سرُّ الفصلِ:

فُصِلت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ عن سابقتها؛ لكمال الاتِّصالِ؛ لكونها توكيدًا وتعليلًا لما سبق، فمجموعُ ما قبلَها في الآية ينتجها، ويلزم منها أيضًا، وهي واردة موردَ التَّذييل[3].

سرُّ التَّوكيدِ:

يؤكِّدُ لهم بعد بيان الدَّليل على المؤكَّدِ إحسانًا إليهم

ورد توكيدُ مضمون جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لبيان أنَّ اللّهَ تعالى لا يعجزه خلقُ ما يريد خلقه، ولا يمنعه من ذلك مانعٌ؛ إذ إنَّ كلَّ ما في الكون خاضعٌ لقدرته، ينفِّذ ما يريده الخالق - ﷻ - وفي الآية ردٌّ على مَن تسوِّل له نفسُه أنَّ باستطاعته أن يغيِّر مقادير الكون التي نظَّمها الله تعالى والأدلَّة السابقة على هذه الجملة ناظرةٌ إلى البعث أتمَّ نظرٍ، وكان أهلُ الكفرِ منكرين له، فأُكِّد لهم هذا المعنى[4].

غرضُ إظهارِ اسم الجلالة:

اسمُ الألوهيَّة له رهبته ومهابته

الغرضُ من الإظهار بيانُ كمال عظمته وقدرته على فعل ما يريد،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 274.
(2) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 186.
(3) التذييل: هو تعقيب الجملة بجملة أخرى متَّفقة معها في المعنى تأكيدًا للجملة الأولى، الخطيب القزويني، الإيضاح: 3/ 205.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 294.

وخلق ما يشاء حسب إرادته، مع تأكيد استقلالِ الاستئناف الفعليِّ[1]، وليَكون كلامًا مُسْتَقِلًّا بذاتِهِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ التَّذْيِيلِ أَنْ يكون كالمَثَلِ[2].

علَّةُ التعبير بلفظ العموم: (كل) مكرَّرًا:

لمّا قيل أوَّلًا: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾؛ أعاد لفظَ العموم في مقطع الآية، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لبيان قدرتِهِ على جميع الأشياء بعمومها خلقًا وإيجادًا، وإعدادًا وإمدادًا، فناسب آخرُ الكلام أوَّلَهُ؛ لعموم قدرة الله تعالى وعظم شأنه، وعلوِّ سلطانه.

من لوازم تمام القدرة إحاطتُها بكلِّ شيء

دلالةُ تنكيرِ: ﴿شَيۡءٖ﴾:

المرادُ بتنكيرِ ﴿شَيۡءٖ﴾ - في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ - التعظيمُ والتكثير، والتكثير يكون في الكميَّة، والتعظيم يكون في الكيف، وقد يجتمعان معًا كما هنا، والله ﷻ قادرٌ على كلِّ شيء، عَظُمَ، أو صغُر، قلَّ، أو كثُر.

ليس كمِثْلِ قدرتِهِ قدرةُ أحدٍ

سرُّ التعبير بصيغة (فعيل):

ورد التَّعبيرُ عن القدرة هنا بصيغة فعيل: ﴿قَدِيرٞ﴾ الذي هو أبلغُ من فاعِل؛ نظرًا إلى التفصيلِ في بيان قدرتِهِ بأنَّه تعالى خلقَ كلَّ دابَّةٍ من ماء، ثم تفصيلِ ذلك إلى أن قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّه ﷻ هو القادر على الكلِّ؛ كما أنَّه هو العالم بالكلِّ المطَّلع على أحوال هذه المخلوقات وأمورها، ومن هنا لا يمكن لأيِّ عقلٍ أو فكرٍ أن يقف عليها، ولا يستطاعُ الوصول إلى أيِّ سرٍّ من أسرارها، وليس بمقدور أحدٍ - مهما أوتي - أن يُكشَفَ له هذا السِّرُّ أبدًا.

سبحان مَن يُصرِّفُ بيانَه عن صفاته، حسب موارد سياقاتها في كلامه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التقليب والتغيير والتكوير:

إنَّ التَّحوُّلَ مِن حالةِ اللَّيل إلى حالة الضِّياء، ومِن حالة النَّهار

التغيير أعمُّ مِن التقليب والتكوير اللذين هما صورتان من صوره

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 186.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

إلى حالة الظَّلام - وذلك كلُّهُ متعلِّقٌ بالجَوِّ الذي يختلِفُ عليه مِن الأعراض ما يختلِفُ - الألصقُ بها هو التقليب؛ لأنَّهُ ردُّ الشيء مِن جهة إلى جهة، وتغييرُ هيئة إلى ضدِّها.

وأمَّا التغيير؛ فإنَّه يدلُّ على مطلق اختلاف شيئين، والانتقال فيه ظاهرٌ؛ كما في قولك: غيَّرتُ داري؛ إذا بنيتَها بناء غيرَ الذي كان، وأمَّا التقليبُ؛ فالانتقال فيه ذو لُطْفٍ، كقلب الإنسان، أي: صرْفُهُ عن طريقته، وبدليل أنَّه يُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به، مِن الرُّوح والعلم والشجاعة وغير ذلك، وعمليَّةُ تقليب الليل والنهار بالنسبة لنا جِدٌّ لطيفة، فلا يكادُ يُدركها أحدٌ بالنَّظر المجرَّد، وإن تابَعَ، وراقَبَ، وإنَّما يُدرِك أثرَها ومآلَها.

وأمّا التكويرُ؛ فهو حالة خاصَّة مِن التغيير، فمادَّته تدور على دَوْرٍ وتَجَمُّعٍ، وضمِّ بعض الشَّيء إلى بعضٍ، واللّه تعالى قال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر:5]؛ إشارةً إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص اللَّيل والنهار وازديادهما[1].

العبرة والذِّكْر:

العِبرةُ أعمُّ مِن الذكرى، والذكرى طريقٌ للعبرة

إنَّ مادَّةَ العِبرة تدور على النفوذ والمضيِّ في الشيء، والاعتبار والعبرة مقيسان من عَبْرِيِّ النَّهر؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عِبْرٌ مُساوٍ لِصاحِبه، فذاكَ عِبْرٌ لِهَذا، وهَذا عِبْرٌ لِذاكَ، فإذا قُلْتَ: اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْءِ، فجَعَلْتَ ما يَعْنيكَ عِبْرًا لِذاكَ، فتَساوَيا عِنْدَكَ، وهَذا اشْتِقاقُ الاعْتِبارِ[2]، وأمّا الذِّكْرُ؛ فهو من: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أَيْ: لا تَنْسَهُ، والذِّكْرَى: كثرة الذِّكر، وهي أبلغُ من الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كور)، والراغب، المفردات: (كور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر)، والراغب، المفردات: (عبر).

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ [ص:43]، وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات:55][1]، والإنسان لن يعتبر بشيء أو مِن شيء، وهو قد نسيه، أو تناساه، فالعِبرة مؤسَّسةٌ على الذِّكر والذكرى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر)، والراغب، المفردات: (ذكر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»